زيغمونت باومن والحداثة السائلة

تقديم:

يعتبر عالم الاجتماع البولندي البريطاني "زيغمونت باومن" أحد أبرز المفكرين الذين تناولوا تحولات المجتمعات المعاصرة في ظل العولمة. وقد إشتهر خصوصا بمفهومه المركزي حول الحداثة السائلة الذي استخدمه لتفسير حالة عدم الاستقرار التي أصبحت تطبع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والمهنية في العصر الراهن. و يرى "باومن" أن المجتمعات الحديثة لم تعد تقوم على الثبات والاستقرار كما كان الحال في الحداثة الكلاسيكية،بل أصبحت تقوم على الحركة المستمرة والتغير الدائم، وهو ما انعكس بشكل مباشر على طبيعة العمل الذي أصبح بدوره مرنا،مؤقتا وغير مستقر.

أولا: التعريف بالشخصية:

ولد "زيغمونت" سنة 1925 في بولندا،وعاش تجربة الحرب العالمية الثانية،ثم هاجر لاحقا إلى بريطانيا حيث عمل أستاذا لعلم الاجتماع بجامعة ليدز. وتأثر "باومن" بالماركسية في بداياته الفكرية،لكنه انتقل لاحقا إلى تحليل نقدي للحداثة والرأسمالية والعولمة.

توفي سنة 2017 بعد مسيرة علمية طويلة ترك خلالها عددا كبيرا من المؤلفات التي تناولت قضايا الحداثة،العولمة،الهوية والعمل؛ ومن أهمها:

- الحداثة السائلة Liquid Modernity
- الحب السائل Liquid Love
- العولمة: النتائج الانسانية Globalisation :The Human Consequence؛

يعد "باومن" من أبرز علماء الاجتماع الذين حاولوا تفسير التحولات المعاصرة من خلال مفاهيم جديدة مثل: السيولة، الهشاشة الاجتماعية،الاستهلاك، الفردانية والعمل المرن. أما موقعه داخل الفكر السوسيولوجي فإنه ينتمي إلى تيار علم الاجتماع النقدي،كما هو قريب في تحليلاته من مدرسة فرانكفورت ومابعد الحداثة والسوسيولوجية التأويلية،لكنه يختلف عن منظري مابعد الحداثة في كونه لايرى أن الحداثة انتهت،بل يرى أنها تحولت إلى شكل جديد سماه الحداثة السائلة(باومن،2000،ص3)

ثانيا، أهمية نظرية الحداثة السائلة عند زيغمونت:

تمثل نظرية الحداثة السائلة إحدى أبرز المحاولات السوسيولوجية لفهم التحولات العميقة التي عرفتها المجتمعات المعاصرة منذ أواخر القرن العشرين،فقد سعى "باومن" إلى تجاوز القراءات التقليدية للحداثة التي كانت تركز على الاستقرار المؤسسي والتنظيم البيروقراطي ليقترح إطارا تحليليا جديدا يفسر التحولات التي طرأت على بنية المجتمع في سياق العولمة والتطور التكنولوجي وتسارع حركة رأس المال.. ومن هذا المنطلق تكتسب نظرية الحداثة السائلة أهميتها العلمية لأنها لاتقتصر على وصف التحولات الاجتماعية بل

تقدم تفسيرا سوسيولوجيا عميقا يربط بين تغير المؤسسات الاجتماعية وتحول التجربة الفردية داخل المجتمع المعاصر ، ويمكن أن نختصرها في النقاط التالية:

- تفسير التحولات المعاصرة، فهم العمل المرن،فهم العولمة

وبذلك تقدم هذه النظرية تفسيرا متكاملا للتحول من مجتمع يقوم على الاستقرار والتنظيم طويل الأمد إلى مجتمع يقوم على السيولة والمرونة وعدم البقين وهومايجعلها تمثل أحدى أهم المقاربات السوسيولوجية لفهم العالم المعاصر.

ثالثا: السياق الفكري لنظرية باومن:

يمكن تقسيم المسار الفكري الذي برز فيه "باومن "وفق المحطات التالية:

1- من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة: إذ يرى "باومن" أن الحداثة مرت بمرحلتين وهما:

أ- الحداثة الصلبة: وتتميز: الاستقرار،المؤسسات القوية، الوظائف الدائمة والهوية الثابتة،إذا كانت الدولة القومية والمؤسسة الصناعية تمثلان أساس التنظيم الاجتماعي(باومن،2000،ص25)

ب- الحداثة السائلة: وتتميز بـ: التغير المستمر،المرونة،عدم الاستقرار والفردانية،إذ أصبحت العلاقات الاجتماعية قابلة للتغيير بسرعة،مثل السوائل التي لاتحتفظ بشكل ثابت(باومن ،2000،ص3)

2- تأثير العولمة: يرى "باومن" أن العولمة ساهمت في: تفكيك الدولة القومية،تحرير السوق وتفكيك العمل المستقر وأصبحت الشركات تتحرك بحرية بينما بقي العمال مقيدين بالمكان(باومن،1998،ص8)

3- المجتمع الاستهلاكي: يرى "باومن" أن المجتمع الحديث أصبح قائما على الاستهلاك بدل الانتاج، إذ لم يعد الفرد يُعرف من خلال عمله بل من خلال قدرته على الاستهلاك(باومن، 1998،ص37)

رابعا:المفاهيم الأساسية عند "باومن":

من المفاهيم المركزية التي عرف بها باومن نذكر:

1-السيولة: تعني غياب الشكل الثابت وهي تشير إلى هشاشة العلاقات،عدم استقرار العمل وتغير الهُويات

2- الفردانية: تعني أن المؤسسات لم تعد توفر الأمان كما كان في السابق،بل الفرد أصبح مسؤولا عن مصيره.

3- عدم اليقين: يعنى بها أن المستقبل غير مضمون وهي من أهم خصائص الحداثة السائلة

4- الهشاشة الاجتماعية: يعنى بها ضعف الروابط الاجتماعية،ضعف المؤسسات وضعف الحماية الاجتماعية

خامسا: الحداثة السائلة:

إن أهم ماتعنيه الحداثة السائلة هي: مرحلة زمنية تتسم بعدم الاستقرار،حيث تصبح المؤسسات مؤقتة،العلاقات مؤقتة والوظائف أيضا. في حين السيولة هي استعارة سوسيولوجية تشير إلى حالة لم تعد فيها الأشكال الاجتماعية قادرة على الاحتفاظ بثباتها لمدة طويلة.

وبهذا فالحداثة السائلة لاتعني مجرد التغير الاجتماعي،بل تعني تسارع التغير إلى درجة تصبح معها البني الاجتماعية نفسها مؤقتة وقابلة لاعادة التشكل باستمرار(باومن،2000،ص 3)

1- الحداثة السائلة كتحول بنيوي في نمط التنظيم الاجتماعي:

إذا كانت الحداثة الصلبة قد تميزت بقدرة عالية على تنظيم الحياة الاجتماعية عبر مؤسسات قوية ومستقرة،فإن الحداثة السائلة تمثل تحولا عميقا في نمط التنظيم،فالتغير الذي يشير إليه باومن لايقتصر على مستوى القيم أو التمثلات،بل يشمل البنية الاجتماعية ذاتها ؛حيث أصبحت المؤسسات أقل استقرار، والعلاقات أقل دوما، والمسارات الحياتية أقل وضوحا، ومن هذا المنطلق فإن السيولة ليست مجرد خاصية سطحية للمجتمع المعاصر،بل هي تعبير عن تحول عميق في منطق التنظيم الاجتماعي ذاته.

فالحداثة السائلة تمثل إنتقالا من مجتمع مؤسسات إلى مجتمع شبكات،حيث لم تعد العلاقات الاجتماعية مرتبطة بإطارات ثابتة،بل أصبحت تتشكل داخل شبكات مرنة وقابلة للتغير، وهذا التحول يعني أن الأفراد لم يعودوا يعيشون داخل مسارات اجتماعية محددة سلفا،بل أصبحوا مطالبين ببناء مساراتهم بأنفسهم في سياق يتسم بعد اليقين.وهكذا فإن الحداثة السائلة لاتمثل مجرد مرحلة تاريخية جديدة،بل تمثل تحولا عميقا في نمط التنظيم الاجتماعي، أين لم تعد الصلابة هي المبدأ المنظم للحياة الاجتماعية،بل أصبحت السيولة هي المبدأ الأساسي الذي يحكم العلاقات والمؤسسات والمهن والهويات على حدج سواء.

2- الزمن الاجتماعي في الحداثة السائلة: من الاستمرارية إلى التقطع:

كان الزمن في الحداثة الصلبة يفهم على أنه مسارا خطيا ومتراكما يمكن التنبؤ به،فقد كانت الحياة الاجتماعية منظمة وفق تسلسل واضح يبدأ بالتنشئة والتعليم،ثم الاندماج المهني،الاستقرار الأسري وأخيرا التقاعد،وكان هذا التسلسل يمنح الأفراد إحساسا بالاستمراري ويتيح لهم التخطيط طويل المدى

غير أن هذا التصور للزمن بدأ يتفكك مع التحولات التي شهدتها المجتمعات الحديثة،خاصة مع تسارع التغير الاقتصادي والتكنولوجي، وفي هذا السياق يرى "زيغمونت باومن" أن الحداثة السائلة أدت إلى انهيار الزمن الطويل الذي كانت تقوم عليه المجتمعات الصناعية وتم استبداله بزمن قصير ومتقطع تحكمه منطق السرعة والتغير المستمرة.فالزمن لم يعد يفهم باعتباره مسارا متصلا،بل أصبح يتخذ شكل سلسلة من اللحظات المنفصلة، حيث تُبتبنى الحياة الاجتماعية على مشاريع قصيرة الأمد بدل الالتزامات طويلة الأمد(باومن، 2000،ص 68).هذا التحول يعني أن الفرد لم يعد يعيش داخل سيرة ذاتية متماسكة،بل داخل سلسلة من التجارب المتقطعة فالتعليم لم يعد يضمن العمل، والعمل لم يعد يضمن الاستقرار، والاستقرار لم يعد يضمن الاستمرار.وبهذا المعنى يصبح الزمن مصدرا للقلق بدل أن يكون مصدرا للأمان.

3- الفردنة وتحميل المسؤولية للفرد:

من أهم التحولات التي تميز الحداثة السائلة إنتقال المسؤولية الاجتماعية من المؤسسات إلى الأفراد، وهذا التحول يؤدي إلى تفكك الأطر الجماعية التي تنظم الحياة الاجتماعية، وتجعل الفرد وحدة التنظيم الأساسية في المجتمع(باومن،2000،ص34)، وإن هذا التحول يعني الفشل لم يعد يفسر بوصفه نتيجة لظروف إجتماعية،بل بوصفه نتيجة لقصور فردي، وبهذا المعنى تصبح البطالة أو الهشاشة المهنية مشكلات فردية بدل أن تكون مشكلات إجتماعية وهو مايسميه باومن بخصخصة المخاطر،حيث يصبح الفرد مسؤلا عن تكوينه،عمله ،صحته ومستقبله.

4- تفكك الروابط الاجتماعية في الحداثة السائلة:

في المجتمعاتالصناعية كانت الروابط الاجتماعية تتشكل داخل فضاءات مستقرة مثل المصنع والحي والنقابة، وكانت هذه الروابط تتميز بدرجة عالية من الاستمرارية،غير أن الحداثة السائلة أدت إلى تفكك هذه الفضاءات مما أدى بدوره إلى تحول الروابط الاجتماعية من روابط مستقرة إلى روابط مؤقتة وهشة.

ويرى "باومن" أن العلاقات الاجتماعية في الحداثة السائلة أصبحت تشبه العلاقات الاستهلاكية،حيث يمكن الدخول فيها والخروج منها بسهولة ؛ ولم يعد الالتزام طويل الأمد يمثل قيمة اجتماعية مركزية كما كان في السابق. وبالتالي فهشاشة الروابط لاتعني فقط ضعف العلاقات الشخصية،بل تعني ايضا ضعف الروابط المهنية،فالعامل الذي ينتقل باستمرار من وظيفة إلى أخرى لايستطيع بناء علاقات مهنية مستقرة،مما يؤدي إلى ضعف التضامن المهني.

سادسا: العمل المرن في الحداثة السائلة:

كانت المجتمعات الصناعية تقوم على مركزية العمل بوصفه أساس الاندماج الاجتماعي ومصدر الهوية الفردية، حيث كانت الوظيفة المستقرة توفر للفرد موقعا إجتماعيا واضحا ومسارا مهنيا متماسكا، أما في الحداثة السائلة فقد بدأ هذا النموذج يتفكك تدريجيا،بحيث لم يعد العمل يمثل إطارا ثابتا للحياة الاجتماعية بل أصبح خاضعا للسيولة وعدم الاستقرار.

وفي هذا السياق يرى زيغمونت باومن أن التحولات التي عرفها العمل ليست مجرد تحولات تقنية أو تنظيمية،بل هي تحولات سوسيولوجية عميقة ترتبط بتغير طبيعة المجتمع نفسه،فالعمل المرن لايمثل مجرد نمط جديد من التشغيل بل يعكس انتقال المجتمع من منطق الاستقرار الى منطق التغير المستمر، ومن ثم فإن العمل المرن يجب أن يُفهم باعتباره تجسيدا مؤسسيا للحداثة السائلة،حيث تصبح العلاقات المهنية مؤقتة، والمسارات المهنية متقطعة، والهويات المهنية غير مستقرة(باومن،2005،ص11)

انطلاقا من هذا التصور يمكن القول أن العمل المرن لايشير فقط إلى مرونة في تنظيم العمل،بل يشير إلى تحول عميق في العلاقة بين الفرد والعمل، أين أصبح العمل مصدرا لعدم اليقين.

1- العمل المرن كتحول بنيوي في نظام العمل:

لقد كان العمل في المجتمعات الصناعية قائما على نموذج مستقر نسبيا،حيث كانت المؤسسات تسعى إلى الحفاظ على العمال لفترات طويلة، وكانت العلاقة المهنية تقوم على نوع من التبادل الضمني بين الاستقرار الوظيفي والولاء المؤسسي.

غير أن هذا النموذج بدأ يتفكك مع التحولات الاقتصادية المرتبطة بالعولمة والتنافسية، حيث أصبحت المؤسسات تبحث تبحث عن المرونة بدل الاستقرار، وعن القدرة على التكيف بدل الالتزام الطويل، ونتيجة لذلك تحولت العلاقة بين العامل والمؤسسة من علاقة دائمة إلى علاقة مؤقتة ومن علاقة قائمة على الثقة إلى علاقة قائمة على الأداء.(باومن،2005،ص25)

2- العمل المرن و تفكك المسار المهني:

من أهم نتائج العمل المرن تفكك المسار المهني الذي كان يمثل أحد الأسس الرئيسية للاستقرار الاجتماعي في المجتمعات الصناعية،فقد كان المسار المهني يقوم على فكرة التدرج،حيث يبدأ الفرد وظيفة معينة ثم يتقدم تدريجيا داخل المؤسسة وكان هذا التدرج يمنح الفرد إحساسا بالاستمرارية والانتماء.

أما في الحداثة السائلة فقد أصبح المسار المهني يتخذ شكلا متقطعا وغير خطي،حيث ينتقل الفرد بين وظائف مختلفة دون وجود روابط واضح بينها،ويرى زيغمونت أن هذا التحول يعكس انهيار فكرة المسار المهني بوصفه مشروعا طويل الأمد، واستبدالها بسلسلة من التجارب المهنية القصيرة(باومن/2005،ص33)

3- العمل المرن والهشاشة الاجتماعية:

في المجتمعات الصلبة كانت الوظيفة مستقرة وتوفر للفرد نوعا من الحماية الاجتماعية،حيث كانت تضمن لهدخلا منتظما وحقوقا اجتماعية واضحة، أما في الحداثة السائلة فقد بدأت هذه الحماية تتراجع،مما أدى إلى زيادة تعرض الأفراد للمخاطر الاجتماعية. ويرى زيغمونت أن العمل المرن أدى إى ظهور فئة اجتماعية جديدة تتميز بعدم الاستقرار المهني،وهي الفئة التي تعيش في حالة دائمة من عدم اليقين(باومن،2005،ص72)

إن هذه الحالة من عدم الاستقرار تؤدي إلى تغير عميق في تجربة العمل،حيث يصبح العمل تجربة مؤقتة بدل أن يكون إطارا دائما للحياة الاجتماعية، كما تؤدي الهشاشة إلى زيادة القلق الاجتماعي لأن الفرد يشعر بأنه معرض دائما لفقدان عمله. ومن هذا المنطلق فإن العمل المرن لايمثل فقط شكلا جديدا من العمل،بل يمثل أيضا شكلا جديدا من الهشاشة الاجتماعية.

4- العمل المرن والهوية المهنية:

لقد كانت الهوية المهنية في الماضي مرتبطة بمهنة مستقرة وكان الفرد يعرف نفسه من خلال عمله،أما في الحداثة السائلة فقد أصبحت الهوية المهنية غير مستقرة،لأن العمل نفسه أصبح غير مستقر. ويرى زيغمونت أن هذا التحول يؤدي إلى ضعف الانتماء المهني لأن الفرد لم يعد يشعر بالانتماء إلى جماعة مهنية مستقرة(باومن، 2005،ص90).

كمايؤدي هذا التحول إلى زيادة الفردانية،لأن الفرد يصبح مسؤولا عن بناء هويته المهنية بنفسه؛ وبهذا المعنى تصبح الهوية المهنية مشروعا فرديا بدل أن تكون نتاجا للانتماء إلى الجماعة المهنية

ومماسبق يمكن القول أن العمل المرن يمثل التجسيد الأكثر وضوحا للحداثة السائلة،لأنه يعكس التحول من الاستقرار إلى السيولة داخل المجال المهني؛فالعمل لم يعد يوفر إطارا ثابتا للحياة الاجتماعية بل أصبح مجالا للتغير المستمر.

سابعا، نقد نظرية الحداثة السائلة:

رغم الأهمية الكبيرة التي اكتسبتها نظرية الحداثة السائلة في الفكر السوسيولوجي المعاصر، إلا أنها لم تسلم من النقد فقد أثارت نقاشا واسعا بين الباحثين حول مدى قدرتها على تفسير التحولات الاجتماعية الراهنة، ويمكن تصنيف هذه الانتقادات ضمن عدة مستويات معرفية ومنهجية.

1- الطابع الاستعاري: يعتبر البعض أن مفهوم السيولة يظل وصفا أدبيا أكثر منه سوسيولوجيا قابلا للقياس والاختبار وهذا مايجعلها أقل قدرة على تقديم أدوات تحليلية واضحة لفهم التحولات الاجتماعية مقارنة بنظرية البنية عند أنطوني غدنز.

2- المبالغة في تصوير عدم الاستقرار الاجتماعي: بالرغم من التحولات العميقة التي شهدتها المجتمعات المعاصرة،لكن لاتزال العديد من المؤسسات مثل الدولة، التعليم والأسرة تحتفظ بدرجة من الاستقرار والاستمرارية، وبهذا مفهوم الحداثة يضخم حجم التغير الاجتماعي ويغفل عناصر الاستمرارية البنيوية

3- غموض العلاقة بين الحداثة ومابعد الحداثة: إن نظرية باومن تقع في منطقة وسطى بين الحداثة ومابعد الحداثة دون أت حسم موقفها النظري ،ففي بعض كتاباته يبدو قريبا من مابعد الحداثة التي تؤكد تفكك البنى الاجتماعية الكبرى،بينما في كتابات أخرى يؤكد أن مانعيشه هو استمرار للحداثة وليس قطيعة معها.

4- ضعف البعد الامبريقي: إعتمد باومن على التحليل الفلسفي والنقد الثقافيأكثر من إعتماده على الدراسات الميدانية.

5- إغفال إمكانات الفعل الاجتماعي: إن تحليل باومن يميل إلى التركيز على مظاهر التفكك واللاستقرار دون أن يمنح مساحة كافية لامكانات الفعل الاجتماعي والمقاومة، ففي حين يبرز باومن الأثار السلبية للعولمة والمرونة الاقتصادية فإنه لايقدم تصورا واضحا لكيفية تجاوز هذه التحولات أو إعادة بناء أشكال جديدة من التضامن الاجتماعي.

خاتمة:

قدم باومن تصورا عميقا للحداثة السائلة باعتبارها مرحلة تتميز بعدم الاستقرار والسيولة،وقد انعكس ذلك بشكل واضح على العمل المرن الذي أصبح مرنا ،و أصبحت الوظيفة لاتوفر الهوية والاستقراركما في الماضي بل الفرد أضحى مطالب بالتكيف المستمر مع التغيرات؛ لكنها تظل إطارا تفسيريا مهما لفهم التحولات البنيوية التي يعرفها المجتمع المعاصر،خاصة فيمايتعلق بتغير طبيعة العمل وتصاعد الفردانية، واتساع مظاهر اللامساواة الاجتماعية، ومن ثم تبقى أعمال باومن مرجعا أساسيا في تحليل إشكالات الحداثة المعاصرة وتحدياتها الاجتماعية والانسانية.

... بالتوفيق مع المحاضرة القادمة ...